التراث . . لماذا ؟

أ . د . حسين نصار*

لماذا الحديث أصلا عن التراث ؟

ولماذا المطالبة بالحفاظ على التراث الموجود في مصر ؟

ولماذا التفكير في تكرار العمل الذي قام به علي باشا مبارك ، عند إنشاء دار الكتب ، من جمع المخطوطات المتناثرة في المساجد ، القائمة في جميع أرجاء مصر ، وإيداعها مركزا واحدا ، كان حينذاك دار الكتب ؟

ولماذا المطالبة باستعادة المخطوطات التي تسللت إلى خارج العالم العربي ، أو الحصول على صور دقيقة واضحة منها ؟

ولماذا تقام المراكز المتعددة لتحقيق هذا التراث ؟

ولماذا يتصدى علماء كثيرون إما لتحقيقه أو لنقد ما يحقق منه ؟

ولماذا إهدار أموال الدولة والجماعات والأفراد وأوقاتهم من أجل القيام بهذه الأعمال ؟

وما هو التراث ؟

أليس هو الماضي الذي انقضى فمات ؟

أليس حمل الموتى عبءا على الأحياء ؟

ألا يثقل خطاهم ؟ ألا يقيد عقولهم ؟ ألا يعوق تقدمهم ؟ بل ألا يخمد إبداعهم في كل ما ينتجون من أدب وفن وعلم ؟

هذه أسئلة تروج ـ هي وأمثالها ـ بين المتعلمين من أبناء الأمة العربية ، فتؤدي إلى بلبلتهم .

فيدعو بعض من يصفون أنفسهم بالتقدمية ويطالبون بقصر التفكير على بناء المستقبل إلى طرح التراث جملة ، كأنه لم يكن وليس بكائن .

* المستشار العلمي لمركز تحقيق التراث بدار الكتب .

وتتوسط جماعات من المثقفين ، فلا يطرحون التراث جملة ، ولا يقبلونه جملة ، وإنما يخضعونه لدراسة تحت أضواء متعددة ، يأتي بعضها من أغوار الماضي ، ويسطع بعضها من ظروف الحاضر ، ويلوح بعضها من آمال المستقبل وطموحاته . فيرون في التراث أصنافا .

وتغلو جماعات فتنادي بالالتزام بالتراث جملة ، لأنه من إنتاج عصور القوة والازدهار والأجداد الأخيار . ويتناسون أن الماضي ليس عصرا واحدا .

وأعتقد أن الأمر يحتاج إلى الابتعاد عن جميع الأفكار الشائعة عن التراث ، والتأمل الدقيق الفاحص للقضية ، لحسن إدراك كل عناصرها .

قد أقول : إن الجنين يولد صفحة بيضاء خالية من كل شيء ، مهملاً . مؤقتاً ما نقرأ عن الجينات التي تورث هذا الوليد بعض ما في أبيه وأمه ، وعن أن هذا الجنين يتلقى ـ وهو في الرحم ـ بعض الأشياء عن أمه .

أما المؤكد فهو أن هذا الطفل يبدأ في الوعي ببعض ما يدور حوله من أمه وأبيه وإخوته ، بعد أيام أو أسابيع ، وأن هذا الوعي يتسع ويدق ويزداد مع مرور الوقت ، فيعطي الطفل إقبالا وإعراضا ، وحركات وأعمالا ، أي أنه يعطيه سلوكا .

وهذا السلوك تراث .

وهو تراث يتلقاه الطفل شاء أم أبى : واعيا وغير واع ، محبا وكارها .

وتتسع دائرة هذا التراث مع اتساع المجتمع الذي يعيش فيه الوليد طفلا ثم صبيا ثم شابا . . . إلي آخر حياته . وقد يرفض المرء بعض هذا التراث ، ولكن هذا الرفض لا يأتي إلا بعد المعرفة ، والتسلل إلى الأعماق فيتمسك الإنسان بالوفاء والصدق والشجاعة والكرم وغيرها مما تعارف المجتمع على أنها فضائل .

ولا يقتصر ما نأخذ من المجتمع على السلوك المحض ، بل يتعداه إلى الفكر الخالص .

فنحن ندين بالإسلام أو المسيحية أو اليهودية لأن أسرتنا تعتنق هذا الدين أو ذاك ، ونحن نتغنى بكرم حاتم الطائي وشجاعة عنترة العبسي الجاهليين ، وبوفاء السموءل اليهودي لأن مجتمعنا يعجب بهم . ونحن نجلّ عددا من الحكام والسياسيين السالفين لأن المجتمع ما زال يجلهم . وهكذا الأمر في جميع المناحي .

وإذن فالإنسان ـ في قسط كبير من سلوكه وتفكيره ـ تراث حيّ ، لا اختيار له فيه ، ولا سعى إلى تحصيله ، ومن العسير عليه أن يتخلص إلا من عناصر فردية منه .

ومن الطبيعي أن الأسئلة التي أوردتها في صدر هذا المقال تتجاهل هذا النوع من التراث عن وعي أو بدون ، وتركز النظر على التراث الفكري المدون وغير المدون .

والتراث المصري غنيٌّ غنىً فاحشا ، تبدأ آثاره مع بدء البشرية في التحضر ، وتشب فتعلو في العصر الفرعوني قمة ما تزال تخلب ألباب الناس في كل أنحاء العالم إلى اليوم .

ثم يشارك البطالمة الإغريق ، والرومان اللاتين ، والأقباط والمسلمون الذين يتحدثون بالعربية ، مما فتح الأبواب بين التراثين العربي والمصري حتى قبل دخول العرب مصر . فهو تراث يستغرق من الزمن آلاف السنين .

وقد انساح التراث العربي في العالم القديم كله ، فشغل المنطقة الممتدة بين الهند وأسوار الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، ومن أواسط أوربا شمالا إلى أواسط إفريقيا جنوبا . يضاف إلى ذلك مناطق متناثرة في أفريقيا الجنوبية (مثل زنجبار في تنزانيا) وإندونيسيا وماليزيا في الشرق الأقصى .

أي أنه ممتد في الزمان والمكان إلى آماد بعيدة ، وشاركت فيه أجناس مختلفة ، وصدر بلغات متعددة .

ولكنني ـ بحكم دراستي ـ أتحدث هنا عن التراث العربي اللغة وحده .

وقد أبدأ بالتراث العربي العلمي ، الذي نؤمن جميعا أن التطور تجاوزه ، يدعو كثيرون إلى أن ننبذه وراء ظهورنا ، وهي دعوة فيها حق كثير ، ولكنها لا تخلو من الباطل .

فتاريخ العلم من الدراسات العالمية القائمة . وللأوروبيين جهود مشكورة في تاريخ العلوم العربية المتعددة . وأعتقد أن الوفاء للوطن المصري والأمة العربية يفرض علينا ألا نترك هذه الدراسات بين أيدي أجانب عنها ، خاضعة لصدقهم أو كذبهم ، لعدلهم أو انحيازهم ، لفهمهم أو عدم قدرتهم على الفهم ، ويفرض علينا ـ على الأقل ـ أن نشارك بنصيب في هذا التاريخ ، يجب أن يكون واعيا وموضوعيا . ولن نستطيع أن نعطي هذا البحث ما يستحق من ضمانات إلا بوجود التراث العلمي الذي نؤرخ له ميسراً بين أيدينا ، غير عسير على الفهم . ولا يمكن هذا إلا بحفظ هذا التراث في خزائن كتب حصينة ، وبتحقيق نماذج

مختارة منه نضعها بين أيدي جميع القراء : لا الباحثين وحدهم . وأعتقد أنه يجب أن يكون في هذه النماذج منافع إلى جانب المنفعة التاريخية .

وأود أن أزعم أن التراث العلمي ليس كتبا فقط ، وإنما هو كشوف ونظريات وآراء وتفكير علمي وسلوك . وهذه كلها مفخرة للعالم العربي يجب على المؤرخين أن يسجلوها ويبرزوها .

فنحن نصف العصور بعد سقوط بغداد في ٦٥٦هـ بالتخلف ، وهي التي منحتنا ابن خلدون عالم الإجتماع الفذ ، والمقريزي مؤرخ مصر الكبير ، والسيوطي والقلقشندي والعمري وغيرهم .

فما الذي خلَّص هؤلاء من عوامل التأخر في عصورهم ، وما الذي أتى بالتأخر أصلا ، وهل كان تأخرا شاملا كل مناحي الفكر أو مقصوراً على بعضها فقط ؟

إنها معرفة تحتاج إلى تاريخ يكشف ، والتاريخ يحتاج إلى تراث يخضعه للبحث .

وربما كان القول في المجال الديني أيسر وأوضح . فجميع المسلمين يتفقون على إجلال القرون الأولى وما أنتجت من تراث علمي ديني . ثم تمر السنوات ، ولا ينقطع الإنتاج ولكنه ـ في معظمه ـ هزيل لا يسامي الإنتاج السابق عليه . بل وصل الأمر إلى حد إغلاق باب الإجتهاد عند السُّنّة ، وإخماد التيار العقلي المتمثل في المعتزلة ، وطرح الاتجاه الديمقراطي الذي هو أحد أركان الخوارج .

فكيف وقع كل هذا إن كان قد وقع حقا كله أو بعضه ؟ وما أسباب وقوع ما وقع؟ بل لماذا أغلق باب الاجتهاد عند السُّنّة ، ولم يغلق عند الشيعة ؟ ما أسباب التقدم الأول والتأخر الذي تلاه ؟ وما الأسباب التي يمكن أن تأخذ بأيدينا إلى تقدم نطمع فيه ، ونلتزم نحن بها لنصل إلى ما نتمنى ؟

إن ذلك يحتاج إلى التاريخ ، والتاريخ يحتاج إلى وثائق يقيم عليها الدرس ، ويدعم بها ما يصل إليه من نتائج . والوثائق نماذج من التراث .

ولكن التراث ليس ضروريا للتاريخ وحده ، بل هو ضروري لمنافع أخرى ، لا تقل عن التاريخ أهمية إن لم تَفُقْه ، ولأضرب أمثلة من الفنون ، ولأبدأ بالفنون الشعبية .

لست في حاجة إلى حديث طويل عما يقع في هذه الفنون بل في جميع الصنائع اليدوية ، تدفع الأسرة التي تريد أن يتعلم ابنها (الصبي) إحدى هذه الصناعات إلى أستاذ (أسطى) ليعلمه إياها . وتتحرى الأسرة أن يكون الأسطى ماهرا في صناعته ، قادرا على

تلقينه أسرارها (معلما) : فيتخذه الصبي (عَمّا) له . وتمتد الصلة إلى أن يحس أنه استنفد ما عند المعلم وأحاط بأسرار العمل ، وفي قدرته أن يستقل به ، بل ويبدع فيه ما لم يعطه أستاذه ، فينفصل عنه إلى عمله الخاص .

هكذا كان الأمر ، وهو كائن اليوم ، وفي المعتقد أنه يدوم أبدا .

وقد بدأت بالصنائع ، لأنها الأمر المشاهد الذي لا يجهله منا أحد ، ولكن ما قلتُه عنها ينطبق على غيرها . فنحن نقرأ في الصحف ونشاهد في التلفاز ، ونسمع من الإذاعة ، أن هذا العمل الدرامي أخرجه فلان ، وأن فلانا وفلانا وأحيانا أكثر من اثنين ، كانوا مساعدين له في إخراجه . والمعنى البسيط لهذا أن هؤلاء المساعدين (صبيان) ما زالوا في مرحلة الأخذ والتدرب .

والعماد الأهم في هذه المرحلة هو العودة إلى التراث ، والتعرف على أسرار جودة الجيد منه ، ورداءة الرديء ، للاستفادة من كليهما .

فإذا ما وصلنا إلى الأدب لم يتغير الحال ، نقرأ في العصرين الجاهلي والإسلامي أن فلانا كان راوية الشاعر الفلاني ، أي (صبيَّه) ، يأخذ منه أسرار التفوق الشعري . وقد كان هذا عاملا في نشأة المدارس الشعرية وأشهرها مدرسة عبيد الشعر ، التي كان رأسها الأول أوس ابن حجر ، وضمَّت جماعة من الشعراء المشهورين في العصرين المذكورين .

ونقرأ أن أبا نواس عندما بدأ ينظم الشعر ، وأراد أن يطمئن إلى سلامة ما ينظم ، وإلى تجويده ، ذهب إلى خلَف الأحمر من أكابر رواة الشعر في زمنه ، فأول ما همَّ بالكلام ، منعه خلف ، وأمره أن يعود ويحفظ آلافا من أبيات الشعر السابق أولاً . ففعل أبو نواس ، وعاد إلى خلف ، فاستمع إلى بعض ما حفظ . وعندما اطمأن إلى صحة دعواه ، أمره أن يحاول نسيان ما حفظ ثم يعود إليه . فلما فعل ، قال له خلف ، الآن تستطيع أن تقول الشعر (الجيد) .

وإذن فالإحاطة بالتقاليد القديمة (التراث) أمر ضروري لاتقان العمل الجديد ، بل للإبداع فيه . لا يقتصر ذلك على فن الشعر ، بل يتعداه إلى كل الفنون ، إن لم أقُل جميع مناحي العمل البشري . ولذلك كان قدماؤنا يقولون : أول الجديد قتل القديم علما .

ولا تقف وظيفة التراث عند معرفة أسرار الصناعة فقط ، بل تتعدى ذلك (الاستلهام) . إن الماضي له جماله الخاص عند البشر ، وللتراث فتنته عند المبدعين والمتلقين . وأقرب الأمثلة ما حظيت به الدراما التاريخية في المسرح والسينما والإذاعة والتليفزيون من نجاح باهر أغرى العاملين فيها بالتزامها سنويا ، على الرغم من تكاليفها الباهظة . ومن أدلّ الدلائل

على ذلك النجاح الكبير الذي تمتعت به مسلسلات ألف ليلة وليلة في الإذاعة ، على الرغم من أنها مسموعة وليست مرئية ، ومن ثم لا تتوافر فيها وسائل الإبهار .

وإذا أبحثُ لنفسي النظر إلى الأدب الإنجليزي نجد إليوت ـ زعيم المجددين في القرن الماضي ـ يجعل من شعره متناً علميا أو موسوعة ثقافية ، لكثرة ما ينهل من التراث وربما لا نجد ما يماثل هذه الحالة عند المجددين من شعرائنا وكتابنا . ولكننا نجدهم ينهلون من التراث الفرعوني والإغريقي والأشوري والفينيقي والأوروبي . وأخيرا العربي والإسلامي . إما يتخذون الحدث التاريخي إطاراً لعمل من إبداعهم ، قد يصوغون فيه رموزا لما يريدون ، كما فعل توفيق الحكيم وصلاح عبدالصبور في مسرحياتهما ، وطه حسين ونجيب محفوظ في قصصهما ، وغير من ذكرت كثيرون ، أو ينتقون من التراث الفني القديم صوراً جزئية . يفعل بعضهم ذلك عن عمد ، فيكون أقرب إلى الفشل منه إلى النجاح . ويفعله بعضهم عن غير وعي فيوفقون توفيقا بعيدا .

ومن أحدث المباديء في النقد ما يسمى بالتناص ، وهو أن الأديب الحديث ، وخاصة الشاعر ، يعيش في التراث ، ويستقي منه ويحوِّر فيه ويغير ؛ وذلك إبداعه . فلا يعاب عليه إلا الأخذ المباشر الواعي ، أما الأخذ مما تمثله الإنسان في ثقافته وعبر عن شخصيته فذلك إبداع آخر .

ولعلِّي أشبِّه هذا العمل بالتمثيل الغذائي . فنحن نتناول خضرا ولحوما وفواكه وأجبانا . . إلخ . ولكنها تتحول ـ بفضل ما تختلط من إفرازات المعدة والأمعاء ـ إلى عجائن ثم عصائر ، وأخيرا تتحول إلى مكونات أعضاء الجسم ، فتكون خلفا جديداً لا صلة له بما تناولناه من طعام .

فالطعام ضروري لخلق الصورة العضوية الأخيرة ، والتراث ضروري لخلق الصورة الفنية الأخيرة ، أي للإبداع ، ومعنى هذا أنه منجم عظيم ، يستخرج منه المجتمع والفرد أعظم المواقف والقيم ، وينتقي منه الفنان والأديب روائع الأجناس والنماذج والرموز والصور الكلية والجزئية .

ولكن للتراث خطره فالذي يضعف أمامه ويتعبد له ، يتجمد فكره وتجف مواهبة ويذوى إبداعه ، سواء كان إنسانا فردا أو مجتمعا كاملا ، وسواء كان مفكرا أو فنانا .

فالواجب إذن أن نحيط معرفة بالتراث لا لنكون أنداداً له ، بل لنتفوق عليه إن كنَّا من أصحاب أدوات التفوق .